

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

دور التفسير اللغوي في إبراز الخصائص الدلالية للمفردات العربية
(تفسير التحرير والتنوير نموذجاً)

The Role of Linguistic Interpretation in Highlighting the Semantic
Characteristics of Arabic Vocabulary

محمد نور الدين يوحمة^{1*}، عبد العليم بوفاتح²

¹مخبر اللسانيات التقابلية وخصائص اللغات جامعة عمار ثليجي بالأغواط (الجزائر)

m.bouhamla@lagh-univ.dz

abdelalimbl@gmail.com²

تاريخ النشر: 2026/03/01

تاريخ القبول: 2026/02/01

تاريخ ارسال المقال: 2025/12/03

*المؤلف المرسل

الملخص:

على تنوعها وجدتها وتعدد أغراضها تعبيراً بالغاً من الدقة وحسن البيان الغاية التي ليس بعدها منتهى. وفي كتب التفسير التي تعنى بألفاظ القرآن الكريم وتهتم بأسرار التعبير القرآني مشاركة هامة في كشف الغطاء عن جانب كبير من هذه الخصائص ولا سيما الخصائص الدلالية، ومن هنا جاء موضوع هذا البحث، وهو: دور التفسير اللغوي في إبراز الخصائص الدلالية للمفردات العربية (تفسير التحرير والتنوير نموذجاً). تعرّض البحث لبيان المقصود بالتفسير اللغوي، وأهم الكتب التي تدرج فيه، وموقع تفسير ابن عاشور منها، ثم تناول أهم الخصائص الدلالية للمفردات في اللغة العربية، ثم انتهى إلى التحليل الدلالي في تفسير "التحرير والتنوير" في محاولة لتسليط الضوء على تتبع ابن عاشور لهذه الخصائص الدلالية في ألفاظ القرآن الكريم. الكلمات المفتاحية: التفسير اللغوي، خصائص اللغة العربية، الدلالة، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير.

Abstract:

The Arabic language is distinguished by many features in its sounds, vocabulary, compositional rules, and semantic aspects, which has endowed it with exceptional expressive capacity that qualified it to express the meanings of the Quran in all their diversity, novelty, and multiple purposes with precision

The books of Quranic exegesis (Tafsir) that focus on the words of the Holy Quran and are concerned with the secrets of Quranic expression make an important contribution to revealing a significant aspect of these characteristics, particularly the semantic characteristics. Hence, the subject of this research emerged: "The Role of Linguistic Interpretation in Highlighting the Semantic Characteristics of Arabic Vocabulary (Tafsir Al-Tahrir wa Al-Tanwir as a Model)."

The research addressed the definition of linguistic interpretation, the most important books that fall within this category, and the position of Ibn Ashur's Tafsir among them. It then examined the most important semantic characteristics of vocabulary in the Arabic language, and concluded with a semantic analysis in the Tafsir "Al-Tahrir wa Al-Tanwir" in an attempt to shed light on Ibn Ashur's tracking of these semantic characteristics in the words of the Holy Quran.

Keywords: Linguistic interpretation, characteristics of the Arabic language, semantics, Al-Tahir Ibn Ashur, Al-Tahrir wa Al-Tanwir.

مقدمة:

بلغت اللغة العربية قبيل ظهور الإسلام أوج تطورها في اتساق أصواتها وغازة مفرداتها وتنوع قوانين تأليفها ووجوه دالاتها، فكانت بسبب ذلك مجالاً لتنافس الفصحاء والبلغاء، وميداناً لإظهار مقدرتهم على استغلال خصائص هذه اللغة في التعبير عن مقاصدهم والإبانة عما في نفوسهم.

ونزل القرآن الكريم فكان إلى جانب كونه كتاب هداية وإرشاد المثل الأعلى الذي تمثلت فيه خصائص العربية ولا سيما الخصائص الدلالية، إذ بلغ من حسن البيان الحد الذي وقف أمامه فصحاء العرب مشدوهين عاجزين عن

معارضته؛ فلا غَرْوَ أن يكون لعلماء التفسير وخصوصاً أصحاب الاتجاه اللغوي منهم اليد الطولى في إبراز هذه الخصائص.

من هذا المنطلق جاء بحثنا للإسهام في بيان جهود المفسرين من أصحاب الاتجاه اللغوي في إبراز الخصائص الدلالية للغة العربية، ولكثرة التفسير اللغوية من جهة، وتعذر الإلمام بالخصائص الدلالية للغة العربية في مستوياتها المختلفة من جهة أخرى، لم يكن بد من اختيار تفسير واحد يكون نموذجاً لهذا النوع من التفسير، ولم يكن بد من الاقتصار على دراسة بعض الخصائص الدلالية دون بعض، وقد وقع الاختيار على تفسير لأحد العلماء المبرزين المعاصرين جرى فيه صاحبه على نهج القدماء من المفسرين الذين أولوا اللغة العربية عناية خاصة، ولم يُقَصِّر - فيما نرى - عن شأوهم، وهو تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتم الاقتصار على دراسة الخصائص الدلالية على مستوى المفردات.. وعليه كان العنوان : " دور التفسير اللغوي في إبراز الخصائص الدلالية للمفردات العربية (تفسير التحرير والتنوير نموذجاً)."

تعرض البحث لبيان المقصود بالتفسير اللغوي، وأهم الكتب التي تدرج فيه، وموقع تفسير ابن عاشور منها، ثم تناول أهم الخصائص الدلالية للمفردات في اللغة العربية، ثم انتهى إلى التحليل الدلالي في تفسير "التحرير والتنوير" في محاولة لتسليط الضوء على تتبع ابن عاشور لهذه الخصائص الدلالية في ألفاظ القرآن الكريم.

أولاً: التفسير اللغوي وأهم ما يندرج فيه من كتب التفسير

كان القرآن الكريم محور اهتمام علماء المسلمين، ومجالاً لكثير من بحوثهم ودراساتهم، وباعتنا على ظهور كثير من العلوم، ومن أهم هذه العلوم المتصلة به علم التفسير، وهو كما عرفه الزركشي في البرهان "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه" 1 وقد تعرض لتفسير القرآن وبيانه فئات مختلفة من العلماء؛ منهم من برع في علوم اللغة، ومنهم من نبغ في العلوم العقلية، ومنهم من اشتهر بالفقه، ومنهم من عُرف بغير ذلك، واختلفت التفسير تبعاً لنزعات أصحابها الفكرية، وما غلب على كل منهم من فنون العلم، فظهرت أنواع من التفسير؛ منها ما اتجه إلى بيان القرآن من جهة اللغة، ومنها ما عُني باستخراج أحكامه، ومنها ما انصرف إلى توضيح إعجازه، ومنها ما تَوَقَّفَ على توجيه قراءاته، ومنها تفاسير جامعة اهتمت ببيان القرآن من جوانب متعددة.

وما يعيننا من صنوف التفسير في هذا البحث هو التفسير اللغوي، ونريد به التفسير الذي يولي عناية خاصة لألفاظ القرآن الكريم من جهة دلالتها على المعنى، ويتجلى هذا النوع من التفسير في قسمين من الكتب: أحدهما: الكتب التي تقتصر على دراسة مفردات القرآن وتراكيبه خاصة، ومن هذا القسم الكتب المؤلفة في معاني القرآن ومشكله ومجازه مثل معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للأخفش، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، ومجاز القرآن لأبي عبيدة²، والكتب المؤلفة في غريبه كغريب القرآن لابن قتيبة، وغريب القرآن لأبي حاتم السجستاني، ومفردات القرآن للراغب الأصبهاني³.

والقسم الآخر كتب التفسير العامة التي تهتم اهتماماً خاصاً ببيان دلالات الألفاظ، وتهتم مع ذلك بجوانب أخرى كبيان العقائد والأحكام والآداب، ومن أهم ما يندرج في هذا القسم "الكشاف للزخشري، و"المحرر الوجيز

في تفسير الكتاب العزيز " لابن عطية الأندلسي، و"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي، و"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لشهاب الدين الألوسي.

ثانياً: المنحى اللغوي في تفسير "التحرير والتنوير"

يعدّ تفسير "التحرير والتنوير" للشيخ محمد الطاهر بن عاشور من أهم التفاسير الشاملة في هذا العصر، أنفق فيه مؤلفه ما يقرب من أربعين عاماً⁴، ونشرته الدار التونسية للنشر عام 1984 في ثلاثين جزءاً، وهو من التفاسير التي اهتمت بالجانب اللغوي اهتماماً خاصاً، وقد بين ابن عاشور نفسه منهجه في مقدمة كتابه، فذكر النواحي اللغوية التي اهتم بها، وهي⁵:

1. فن دقائق البلاغة الذي لا تخلو آية من آي القرآن منه، والتزم التنبيه عما يلوح له منه.

2. بيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة وأساليب الاستعمال.

3. بيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض.

4. بيان أغراض السُّور

5. بيان معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق أغفلت كثيراً منه قواميس اللغة.

ومما يشهد لنزعة ابن عاشور اللغوية أنّ أكثر التفاسير التي يرجع إليها هي من التفاسير التي أولت اللغة العربية اهتماماً خاصاً، وقد تعرض في مقدمة كتابه لذكر التفاسير السابقة فانتقد كثيراً منها على وجه الإجمال، ونوّه بطائفة منها اعتنت بالتفسير اللغوي اعتناء ظاهراً كتفسير الكشاف وحواشيه، والمحرر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب للرازي، وتفسير البيضاوي وحاشية الحفّاجي عليه⁶.

ثالثاً: أهم الخصائص الدلالية للغة العربية

تشارك اللغة العربية غيرها من اللغات في كثير من الصفات، والظواهر التي يُثبتها علم اللسان العام، ولكنها مع ذلك تنفرد بكثير من الخصائص من ناحية أصواتها ومفرداتها وقوانين تركيبها ودلالاتها، وسنقصر الحديث في هذا البحث على خاصيتين من أهم خصائص مفرداتها، وهما الاشتقاق والبناء الصري.

1. الاشتقاق:

تنظم مفردات اللغات الحية في مجموعات، وترتبط مفردات المجموعة الواحدة منها برابطة تشبه رابطة النسب، وتتولد المفردات بعضها من بعض حاملة صفات مجموعات، وتتسع مجموعات تبعاً لذلك، وتتفاوت الرابطة الجامعة بين المفردات في مقدار قوتها وضعفها، وظهورها وخفائها من لغة إلى أخرى؛ فاللغة العربية تتجمع مفرداتها في مجموعات تشترك مفردات كل مجموعة منها في ثلاثة أحرف - على الأغلب - وفي معنى عام، ثم تنفرد كل كلمة من المجموعة بصيغتها الخاصة، ومعناها الخاص الذي اكتسبته من صيغتها، أو منها ومن الملابس التي أحاطت بها أثناء تنقلها من بيئة إلى أخرى، ومن زمان إلى آخر، وقد تبعد الكلمة عن المعنى الأصلي المشترك بينها وبين أخواتها حتى يخفى الارتباط بينها وبين أصلها من جهة المعنى، ولكنها تبقى دائماً حاملة دليل انتسابها إلى المجموعة في الأحرف الثلاثة التي لا تفارقها مهما تصرّفت⁷.

وتتيح هذه الميزة توليد مفردات كثيرة من جذر ثلاثي واحد تشاركه في المعنى العام، وينفرد كل منها بمعنى خاص فيتفرع من مادة (الكاف والتاء والباء) مثلاً: كلمات منها: كتب، ويكتب، واكتب، وكاتب، ومكتوب، وكتاب، ومكتب...

وقد درس علماء العربية القدماء هذه الظاهرة، وعرفوها بعضهم بقوله: "الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلافاً حروفاً أو هيئة كضارب من ضرب، وحذر من حذر"8، وقد راعى القدماء هذه الميزة في صناعة المعاجم فجمعوا الكلمات التي تنتمي إلى جذر واحد في مكان واحد.

والحق أنّ اللغة العربية لا تنفرد بظاهرة الاشتقاق، ولكن الاشتقاق فيها يختلف عنه في غيرها اختلافاً كبيراً، ويتميز فيها تميزاً ظاهراً، وقد سبقت الإشارة إلى أن الكلمة المشتقة من مادتها في العربية تبقى دائماً ظاهرة الصلة بمادتها الأصلية وثيقة الارتباط بأخواتها المشاركة لها في المادة، وهذه من خواص اللغة العربية؛ يقول محمد المبارك منوهاً بهذه الميزة: "وهذه مزية في اللغة العربية ليست لغيرها من اللغات؛ ذلك أنّ الألفاظ في اللغات الأخرى يعتريها من التبدل ما يمحو أصلها ويخفي معالمه"9.

وقابل العقاد بين اللغة العربية وغيرها من اللغات من ناحية الاشتقاق فقال: "الاشتقاق موجود في لغات كثيرة، وهو بعض الخواص الملازمة للغات السامية، ولكنه لا يوجد بهذا التوسع على هذه القواعد المفصلة كما يوجد في اللغة العربية"10

وعقد مقارنة بين اللغة العربية واللغات السامية خصوصاً من ناحية الاشتقاق فقال: "ولكننا إذا قارنا في خاصّة الاشتقاق نفسها بين العربية وأخواتها في الأسرة اللغوية كادت أن تنفرد بالاشتقاق مقصور عليها، لا يضارعه اشتقاق العربية أو السريانية أو الكلدانية أو الحبشية في السعة ولا في تقسيم القاعدة ولا في تحكيم المتكلم في التعبير عن أغراضه على حسب كل احتمال معقول"11

ويُعدّ الاشتقاق وسيلة هامة لاستحداث مفردات جديدة من مادة قديمة كلما دعت الحاجة إلى ذلك، ومن المفردات المستحدثة عن طريق الاشتقاق مفردات استحدثها القرآن الكريم كالزكاة، والجهاد، والمسلم، والكافر، وغيرها.

2. البناء الصرفي:

إذا كان الاشتقاق يتيح تصنيف المفردات العربية في مجموعات على أساس اشتراكها في الأحرف الثلاثة الأصلية والمعنى العام، فإنّ في العربية ميزة أخرى يمكن أن تُصنّف المفردات على أساسها، وهي هيأتها التي يُعبر عنها علماء العربية عنها بالبناء أو الصيغة أو الوزن، والجامع بين المفردات في هذا التصنيف هو البناء، والمعنى الخاص الذي تكتسبه الكلمة من البناء، وذلك لأنّ المفردة العربية تتولد من إفراغ المادة الأصلية وهي الأحرف الثلاثة في قالب خاص هو البناء، وتكتسب الكلمة من هذا البناء معنى خاصاً تتميز به عن الكلمات التي تشاركها في المعنى العام.

وجملة القول أنّ الكلمة العربية تدل بمادتها على معنى تشترك فيه مع الكلمات التي تنتمي معها إلى أصل واحد، وتدل بنائها على معنى تتميز به عن الكلمات المشاركة لها في الأصل، ومن هذين المعنيين، ومن استعمالها في بيئات متباينة وأزمنة مختلفة يتحصّل معناها في اللغة. 12

وتعدّ هذه الأبنية بمثابة قوالب جاهزة تضعها العربية أمام المتكلم بها، فلا يحتاج مستخدم اللغة العربية إذا أراد أن يُعبّر عن كثير من المعاني العامة كالفاعلية والمفعولية والزمان والمكان والهيئة والمفاضلة... إلا أن يختار المادة التي يريد ويفرغها في البناء المُعدّ لذلك المعنى.

وليست هذه الأبنية قليلة في اللغة العربية؛ فقد اعتنى العلماء قديماً بجمعها وإحصائها فبلغت عند سيبويه (308) سوى أوزان الأفعال، وبلغ بها ابن القطاع في كتاب الأبنية (1210)، 13 وقد اجتهد العلماء في استنباط دلالات هذه الأوزان، ويّبنوا كثيراً منها. 14

ولهذه الميزة المتصلة بميزة الاشتقاق قيمة دلالية كبيرة استرعت اهتمام العلماء والباحثين قديماً وحديثاً؛ يقول العقاد: "فالاشتقاق العربي يعطي المتكلم من الأوزان بمقدار ما يحتاج إليه من المعاني المحتملة على جميع الوجوه، والمتكلم هو صاحب الشأن في اختيار الكلمة وليست الكلمة هي العبارة المفروضة عليه لأنها وضعت من أصلها ارتجاءً أو محاكاة لصوتٍ أو تلفيقاً للأجزاء من مختلف المواد." 15

وفي العبارة الأخيرة من كلام العقاد ما يشبه أن يكون تعريضاً بغير اللغة العربية من اللغات التي قوام مفرداتها الارتجال على غير قياس مسبق، أو محاكاة أصوات الطبيعية، أو النحت والإلصاق.

وقد تعرض في سياق آخر لتوضيح شأن الأبنية في التفريق بين الأفعال والأسماء والصفات والدلالة على الأفراد والجمع، وغير ذلك من المعاني فلاحظ: "أنّ الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في اللغة العربية، وأنّ اللغات السامية التي تشارك هذه اللغة في قواعد الاشتقاق لم تبلغ مبلغها في ضبط المشتقات بالموازين التي تسري على جميع أجزائها، وتوفّق أحسن التوفيق المستطاع بين مبانيها ومعانيها" 16. ومثّل لذلك فقال: "فالفرق بين ينظر وناظر ومنظور ونظير ونظائر ونظارة ومناظرة ومنظار ومنظر ومنظر، وما يتفرع عليها هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع، وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن... وحكم الأسماء الجامدة كحكم المشتقات في هذه الخصلة، فإنها تجري على أوزان معلومة..." 17

وعقب العقاد على هذه الملاحظة بما يدل على اختصاص اللغة العربية بهذه المزية فقال: "وعلى غير هذا النسق تجري أوزان الكلمات في اللغات الأخرى، وأولها لغات النحت على التخصيص" 18

رابعاً: سمات التحليل الدلالي للمفردات في تفسير التحرير والتنوير

لم يتهياً لنص من النصوص أن تتمثل فيه القدرة التعبيرية الفائقة للغة العربية كما تمثلت في القرآن الكريم، فقد تحدّى الله به العرب، وحسنّ البيان مجالاً تنافسهم، وميداناً تفاخرهم، فما كان منهم إلا أن عجزوا عجزاً تاماً عن معارضته، ولم يزل العلماء على اختلاف تخصصاتهم وتعاقب أزمته مهتمين بالبحث عن وجوه إعجازه وأسرار بلاغته، وقد مرّ بنا أنّ فريقاً من علماء التفسير وجّهوا عنايتهم إلى دراسة ألفاظ القرآن وبيان معانيها بالاستناد إلى علوم اللغة العربية، ويُعدّ هذا النوع من الدراسة من جهة أخرى بحثاً عن خصائص العربية التي أورثتها هذه القدرة

التعبيرية الهائلة فتمكنك بواسطتها من أداء المعاني القرآنية على تنوعها بين أحكام تشريعية دقيقة، وآداب رفيعة، ومواعظ بليغة، وأخبار صادقة.

وقد دخل في زمرة هؤلاء المفسرين في عصرنا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بعد أن استكمل عدّة التفسير، وامتلك أدوات التحقيق اللغوي فضرب بسهم وافر في إبراز الخصائص الدلالية للغة العربية، وإذا كانت الكلمة في اللغة العربية تأخذ معناها من المعنى العام الذي تدل عليه مادّتها الأصلية، ومن بنائها الصرفي، ومن استعمالها العملي في البيئات التي تقلّبت فيها؛ فإنّ عناية ابن عاشور رحمه الله بكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة يُعد سمة بارزة في دراسته للمفردات، فهو يرجع بالكلمة إلى معناها الأصلي عن طريق الاشتقاق، ويبيّن معنى بنائها عن طريق الصرف، ويَقِفُ القارئ على المعاني التي أخذتها في الأزمنة المختلفة مستعينا بشواهد الشعر، والمراجع الأدبية واللغوية، وفيما يأتي توضيح لكل سمة من هذه السمات بجملة من الأمثلة:

(أ) تأصيل المفردات

يُعدّ تأصيل المفردات من السمات البارزة في تفسير ابن عاشور، وهذه نماذج من الكلمات التي تناولها بالتأصيل:

1. اسم الجلالة:

ذكر ابن عاشور في تفسير سورة الفاتحة أنّ أصل اسم الجلالة في لغة العرب هو الإله بالتعريف، وذهب إلى أنه اسم جنس دال على المعبود بحق مشتق من ألّه بفتح اللام بمعنى عبد، أو من ألّه بكسر اللام بمعنى تحيّر أو سكن أو فرح أو وَلِعَ مما يرجع إلى معنى هو ملزوم للخضوع والتعظيم، ووزنه فِعَال بمعنى مفعول ككتاب بمعنى مكتوب. ورجّح أنّ هذا الاسم تقرر في لغتهم قبل ظهور الشرك فيهم؛ فكان لا ينطبق وقتئذ إلا على الباري عز وجل، ثم لما كان مختصاً به صار مع كونه اسم جنس علماً عليه، ثم تصرفوا في اللفظ فحذفوا همزته لكثرة جريانه على ألسنتهم فقالوا: "الله" كما حذفوا همزة الأناس فصارت "الناس"، وعدّوا "أل" جزءاً من الكلمة لا حرف تعريف، واستدل ابن عاشور على جزئيتها عندهم أنّهم جوزوا نداء اسم الجلالة دون حذفها مع منعهم نداء ما فيه "أل". وحاصل رأي ابن عاشور أن اسم الجلالة تدرج في ثلاثة أطوار من "الإله" اسم جنس، إلى "الإله" اسم جنس وعلماً في الوقت نفسه، ثم إلى "الله" علماً¹⁹.

ولم يكتفِ ابن عاشور بتقرير الرأي الذي ذهب إليه في أصل اسم الجلالة، بل نقل وجوهاً أخرى منها أنه مأخوذ من "لاه" مصدر الفعل لاه يليه بمعنى احتجب، سمي به الله، ثم أدخلت عليه "أل" للمح الأصل، ومنها أنه مأخوذ من "ولاه" من الفعل وَلِه بمعنى تحير، ثم قلبت الواو همزة ثم أدخلت عليه "أل" وحذفت الهمزة، ومنها أن أصله كلمة "لاها" - وهي علم له في السريانية - عرّبت بحذف ألفها وإدخال "أل" عليها، ومنها أنه موضوع من أوّل الأمر علماً ليس مأخوذاً من كلمة أخرى²⁰.

وفي هذا البحث لاسم الجلالة ما يشهد على عناية ابن عاشور برد الكلمات العربية إلى مادّتها الأصلية، دون إغفال التنبيه على الأصل الأعجمي للكلمات المعرّبة.

1. "رب":

تعرض في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2] لبيان أصل "رب"، فرجح أنه مأخوذ من "ربّه" بمعنى ربّه وساسه، لا من "ربّه" بمعنى ملكه كما ذكر الزمخشري²¹، واستند في هذا الترجيح - مع إقراره بأن الأكثر في كلام العرب أن ترد كلمة "الرب" بمعنى الملك والسيد - إلى قرينة المقام على اعتبار أن المراد هنا من يُدبّر الخلاق ويسوس أمورها ويبلغها أعلى درجات كمالها، ولأنه لو فُسّر بالملك لكان قوله تعالى بعد ذلك ﴿مُلْكِ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ [الفاتحة: 4] كالتأكيد، وهو خلاف الأصل.22

"الكُفر":

تعرض في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوُتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28] لبيان معنى الكُفر، فلم يكتفِ في تفسير هذه المفردة ببيان معناها الشرعي المراد بها في القرآن، بل رجع بها إلى معناها الأصلي، وبيّن المادّة التي اشتقت منها، و حصل كلامه أنّ الكُفر بمعناه الشرعي هو مصدر سماعي للفعل الثلاثي اللازم كُفر، ومعناه الأصلي في اللغة هو جحد النعمة، وأصل هذه المادّة الكُفر بفتح الكاف بمعنى الحجب والتغطية والستر؛ قيل لمن جحد النعمة: كفر النعمة لأنه غطاها وحجبها ولم يعترف بها، وقيل لمن لا يؤمن بالله: كفر بالله لأنه غطى نعم الله عليه ولم يعترف بها.23

3. "التوراة" و"الإنجيل":

تعرض في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: 3] لتأصيل كلمتي "التوراة" و"الإنجيل" فذهب إلى أنّ التوراة اسم مأخوذ من العبرانية، أصله "طورا" بمعنى الهدى، وذكر أنه أطلق أول الأمر على الألواح المشتملة على الكلمات التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور، ثم عمّ جميع الكتب التي نزلت عليه، ولما دخل إلى العربية لحقته "أل" ليصير علما بالغلبة.24 وذكر أنّ من اللغويين والمفسرين من التمسوا له اشتقاقا عربيا، فردّوه إلى "الوُزي" بمعنى الوقْد على وزن "تفعلة"، أو "فوعلة"25، وأجاب عما يمكن أن يكون قد استند إليه أصحاب هذا الرأي.26 وذهب إلى أنّ "الإنجيل" اسم معرّب، ونقل أنه مأخوذ من الرومية، وأصله "إثانجيليوم" بمعنى الخبر الطيّب، وذكر أنّ بعض العلماء حاولوا ردّه إلى أصل عربي، وجعلوه مشتقا من "النجل"، وهو الماء الذي ينبع من الأرض، ووصف عملهم هذا بالتعسف.27

2. "الدّأب":

تعرض في تفسير قوله تعالى: ﴿كَدَّأَبٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: 11] لبيان معنى "الدّأب"، فذكر أنّ أصله الكدح في العمل وتكراره، ثم استعمل بمعنى العادة لأنها تنشأ عن كثرة العمل فصار حقيقة شائعة، ثم استعمل للدلالة على الشأن، واستشهد ابن عاشور على كل من استعمل "الدّأب" بشاهد من الشعر، وذكر أنه مستعمل في الآية بمعنى الشأن.28

وهكذا دأب ابن عاشور في تفسيره على تأصيل المفردة القرآنية بردّها إلى مادّتها اللفظية التي أخذت منها وتبيين المعنى الأصلي الذي اقترن وجوده بوجود هذه المادّة، وحرص مع ذلك على بيان المعاني التي استخدمت فيها والمعنى المراد بها في الآية.

3. " الإذن":

تعرض في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا أَحْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 213] لتأصيل "الإذن" فذكر أنه مأخوذ من "أذن" إذا أصغى السامع أذنه إلى حديث من يحدثه، ثم استعمل للدلالة على المخاطبة بإباحة فعل على سبيل المجاز بعلاقة الزوم على أساس أنّ الإصغاء إلى حديث المتحدث يستلزم إجابته إلى ما يريد، ثم صار الإذن أشيع في معنى المخاطبة بإباحة فعل، ومن ثمّ ساغ استعماله مجازاً للدلالة على معانٍ تشبه هذا المعنى، وقد استعمل في هذه الآية على وجه الاستعارة في معنى التمكين من الاهتداء وتيسيره لأنّ من يُمكن أحداً من شيء ويُيسره له كأنّه قد أباح له فعله. 29

وهكذا نرى المفردة في تفسير ابن عاشور تنتقل من المادة الأصلية التي تولدت منها إلى معنى مجازي، ثم تصير حقيقة شائعة في هذا المعنى، ثم تستعار لمعنى آخر مشابه له.

4. "حسب" و"عدّ":

تصدى في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 214] لتأصيل معنى الفعلين "حسب" و"عدّ"، فذكر أنّ الفعل "حسب" بكسر السين في الماضي، وكسره أو فتحه في المضارع هو فعل من أفعال القلوب مصدره الحِسبان بكسر الحاء، وذكر أنّ أصله الحساب بمعنى العدّ، وقد استعمل بمعنى الظنّ تشبيهاً للعمل القلبي الذي يحدث في النفس من أجل التوصل إلى العلم بشيء ما بعمل اليد في الأشياء المحسوسة من أجل تعيين عددها 30، وذكر أنّ الفعل "عدّ" بمعنى "ظنّ" مثل الفعل "حسب" في ذلك. 31

5. "يتسنّه":

ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنْظِرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259] أنّ الفعل "يتسنّه" معناه يتغير، وأصله من السنّة لأنّ مرور السنين على الشيء يؤدّي إلى تغييره، والهاء في آخر الفعل أصلية، وليست هاء سكت، واستطرد إلى أنّ هاء سنة ربما عوملت معاملة التاء عند الاشتقاق منها، فقد قالوا: أسنت فلان بمعنى أصابته سنة، وورد لفظ "مستنّين" في بعض الشواهد الشعرية بمعنى مصابين بسنة. 32

6. "قنطار":

أورد ثلاثة آراء في أصل "قنطار" عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُزِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]، أحدها أنّه معرّب عن "الرومية اللاتينية الشرقية"، والثاني أنّه معرّب عن السريانية، والثالث ما جاء في الكشف من أنّه من قنطرت الشيء بمعنى رفعته 33، وقد استصوب ابن عاشور الرأي الأول، وذكر أنّ أصل الكلمة في اللاتينية "كينتال"، ووصف رأي صاحب الكشف بالتكلف. 34 وفي هذا ما يشهد على أمانة ابن عاشور وإنصافه وبُعده عن المبالغة في رد المفردات القرآنية إلى أصول عربية.

7. تتزاور:

عرض ابن عاشور لبيان معنى الفعل "تزاور" في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ [الكهف: 17]، فأورد له ثلاث قراءات نسبها إلى أصحابها، إحداها: تَزَاوَر، وأصلها تَتَزَاوَر بتاءين أدغمت التاء الثانية في الزاي للتخفيف، والثانية: تَزَاوَر، وأصلها تَتَزَاوَر بتاءين حذف تاء المضارعة للتخفيف اكتفاء برفع

الفعل دليلاً على المضارعة، والثالثة: تَزَوَّرُ على وزن تَحَمَّرَ. وذكر أنّ هذه القراءات كلها أبنية مشتقة من الزَّوَر بتحريك الواو، ومعناه الميل عن المكان. 35

وهكذا نرى ابن عاشور يُعنى بالقراءات المختلفة للمفردة القرآنية، ويبيّن ما حدث في بنيتها من التغيير، ويردّها إلى مادّتها الأصلية ومعناها الأصلي.

(ب) معاني الأبنية الصرفية

يهتم ابن عاشور ببيان المعاني الصرفية للكلمات اهتماماً كبيراً، وهذه نماذج من الكلمات التي عُني بدلالة بنائها الصرفي:

8. النعمة:

ذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]: أنّ النعمة هي الحالة الحسنة، وعلل ذلك بأنّ صيغة فعلة يؤتى بها في العربية للدلالة على الهيئات. 36

9. غشاوة:

وذكر في تفسير قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: 7] أنّ وزن غشاوة فعالة، وأنّ من المعاني التي يُصاغ لها هذا الوزن ما يشتمل على الشيء كالعمامة واللّفاة والعلاوة، ونقل عن غيره أنّه يصاغ لما دل على صناعة كالحياطة بالنظر إلى ما فيها من الدلالة على الاشتغال المجازي، وخلص بعد هذا البيان للمعنى الصرفي إلى أنّ معنى الغشاوة هو الغطاء. 37

10. "النبيء":

وعرض لذكر "النبيين" في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً ً وَاحِدَةً ً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213] ، فذكر أنّه جمع لنبيء، وأنّه على وزن فاعيل بمعنى مفعول، وأنّ اشتقاقه من النبأ، والنبأ هو الخبر المهم. 38 فبيّن بهذا أنّ المعنى الصرفي للنبيء هو المنبأ.

11. "منفعة":

وجرى ذكر كلمة منافع في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ ً كَبِيرٌ ً وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219] ، فذكر ابن عاشور أنّها جمع مفردة "منفعة"، وهي على وزن مفعلة، وذكر أنّها تحتمل أن تكون مصدراً ميميا دالا على قوة النفع لأنّ المصدر الميمي أبلغ بسبب زيادة المبنى، وتحتمل أن تكون اسماً للمكان الذي يكثر فيه حصول النفع كقولهم مسبعة للمكان الذي تكثر فيه السباع، ومقبرة للمكان الذي تكثر فيه القبور، فالمنفعة على كلا الوجهين أبلغ من النفع. 39

12. "القيوم":

ووردت كلمة "القيوم" في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] ، فبيّن ابن عاشور على عاداته في الاعتناء بالجانب الصرفي للكلمة وزكّها، واشتقاقها، وما حصل فيها من إعلال، ومعناها الصرفي، وخلص

بعد ذلك إلى المعنى المراد بها في الآية؛ ومجمل ما ذكره أنها صيغة مبالغة على وزن فيعول يراد بها المبالغة في القيام بالمعنى المجازي المشهور الذي هو تدبير أمور الناس. 40

13. "الشَنَانُ":

وذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2] أَنَّ الشَّنَانَ معناه البغض أو شدة البغض، ولم يُغفل التنبيه على دلالة الصرفية، فذكر أنَّ فيه معنى اضطراب النفس استناداً إلى أنَّه من المصادر الدالة على التقلب والاضطراب كالغليان والنزوان. 41

14. "نسي":

ووردت كلمة "نسي" في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيٍّ﴾ [مريم: 23] بكسر النون في قراءة الجمهور، وبفتحة في قراءة بعض القراء، ففسر ابن عاشور "النسي" بالكسر بأنه "الشيء الحقير الذي شأنه أن يُنسى" 42، وذكر لهذا المعنى توجيهاً صرفياً، وهو أنَّ صيغة "فعل" بكسر الفاء تأتي في العربية للدلالة على الاسم المهمياً لأن يُفعل به الفعل، لا للدلالة على الاسم الذي فُعل به الفعل، ومثّل لذلك بكلمة "ذبح" في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدَّيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107] ، وذكر أنه لا يقال للكبش ذبح ما لم يكن مُعدّاً للذبح، ولا يقال له ذبح إذا كان مذبوحاً بالفعل، بل يقال له حينئذ ذبيح، وذكر أنَّ العرب تسمي الأشياء التي يقل الاهتمام بها أنساءً، ولذلك يقولون عند الارتحال من المنزل: انظروا أنساءكم أي الأشياء التي شأنها أن تُنسى. 43

15. "استياسوا":

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80] ، أنَّ "استياسوا" بمعنى يسسوا، ولما كان الفعل المستعمل في الآية مزيداً بالهمزة والسين والتاء في أوله، لم يفت ابن عاشور أن ينبه على فائدة هذه الزيادة، فذكر أنها للتأكيد، ونظر لها بزيادتها في الفعل "استجاب" والفعل "استعصم" 44.

16. "ينفطرن"، و"ينفطرن":

وذكر في تفسير قوله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمُوتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: 5] أنَّ هناك قراءتين للفعل "يَنْفَطَرْنَ" صيغة كل منهما تدل على المطاوعة، إحداهما "يَنْفَطَرْنَ" (يباء في أوله بعدها تاء) وهي قراءة الجمهور، والفعل على هذه القراءة مضارع للفعل تَفَطَّرَ، ومصدره التَفَطَّرَ، وهو مطاوع للتفطير مصدر الفعل الرباعي فَطَّرَ الدال على تكرير الشق، والثانية "يَنْفَطَرْنَ" (يباء في أوله بعدها نون)، وهي قراءة لبعض القراء، والفعل على هذه القراءة مضارع للفعل انفطر، ومصدره الانفطار، وهو مطاوع للْفَطَّرَ مصدر الفعل الثلاثي فَطَّرَ بمعنى شَقَّ من غير دلالة على تكرير الشق. 45

ولما كان بناء إحدى القراءتين يدل على تكرير الفعل وبناء الأخرى لا يدل على تكريره، وهو ما يوهم أنَّ المراد بإحداهما يختلف بعض الاختلاف عن المراد بالأخرى، نبه ابن عاشور على أنَّ المقصود بالقراءتين واحد، وهو الإخبار بحصول الفعل، وأَنَّه لا يُقصد هنا ما تدل عليه صيغة الفعل -على القراءتين- من المطاوعة -وهي قبول أثر الفاعل- ، ولا ما تدل عليه صيغة التفعّل غالباً من معنى التكرير للفعل، وعلل ذلك بأنَّه لا فاعل هنا للشق ولا لتكرره. 46

وفي هذا ما يدل على أنّ ابن عاشور وإن كان يُعنى ببيان المعاني الصرفية اعتناء كبيراً، لا لا يغترّ بما يذكره الصرفيون من المعاني الشائعة للأبنية، وإنما هو يأخذ منها ويترك عن تأمل واجتهاد ومراعاة للسياق واعتداد بالقراءات المختلفة للآية.

17. "عدوّ":

وذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأِيَّاهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 77] وزن كلمة عدوّ، واشتقاقها، ووجه استعمالها؛ فذكر أنها على وزن فعول بمعنى فاعل، وأنها مأخوذة من عدا يعدو، وأنها تعامل معاملة المصادر فيوصف بها المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، وعلل هذا الاستعمال بأن أصلها مصدر على زنة فعول كالقبول ونحوه. 47

(ج) معاني المفردات في الاستعمال اللغوي

ذكر ابن عاشور في مقدمة تفسيره أنه اهتم ببيان معاني الكلمات في اللغة العربية مع ضبط وتحقيق غفلت معاجم اللغة عن كثير منه 48، ونرى حقاً في تفسيره ما يدل على عنايته بتحقيق معاني المفردات، وتتبع مواقع استعمالها في كلام العرب وتوضيح وجوه تصرفهم فيها، وهذه نماذج من المفردات التي عني بها من ناحية معانيها في الاستعمال:

1. "اليقين":

جاء في لسان العرب في مادة (يقن): "اليقين: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر" 49، وهذا شرح لكلمة "اليقين" بثلاثة معان عامة. وقال صاحب القاموس في المادة نفسها: "والْيَقِينُ: إِزَاحَةُ الشَّكِّ" 50 فلم يزد على بعض ما ورد في اللسان.

وقال الراغب في شرح هذه المفردة: "الْيَقِينُ من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم" 51، وفي عبارة الراغب شيء من التخصيص والتدقيق إذ يفهم من تفسيره أنّ "اليقين" مرتبة من مراتب العلم فوق المعرفة والدراية.

وإذ جئنا إلى تفسير هذه المفردة في "التحرير والتنوير" رأينا تفصيلاً أدق، وتحقيقاً أوفى؛ يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]: "واليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق، ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر فيكون أخص من الإيمان ومن العلم... ولذلك لا يطلقون الإيقان على علم الله ولا على العلوم الضرورية" 52.

فنراه يبيّن بيانا شافيا حقيقة اليقين وما يميّزه عن العلم والإيمان، ويبين علة امتناع إطلاقه على علم الله، وعلى العلم الذي يحصل بالبدهة.

ونراه يبيّن زيادة على ذلك وجه اختيار مادة الإيقان في التعبير عن الإيمان بالآخرة فيذكر أنّ التعبير عن الإيمان بالآخرة بلفظ من مادة الإيقان فيه إشعار بأنّه علم يحصل بالتأمل والنظر والاستدلال، ولما كانت الآخرة من

الأمر الغيبية، وقد كثرت الشبهة التي دعت المشركين والدهريين إلى إنكارها، ناسب ذلك أن يُعبر عن الإيمان بها بلفظ "يوقنون" المأخوذ من مادة الإيقان، ففي ذلك خصوصية تناسب بلاغة القرآن. 53

2. "المتقي":

ومن أمثلة اهتمامه بمعنى المفردة في اللغة قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كُنْتُمْ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] "والمتقي من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية، والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه فالمتقي هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر" 54 وشرح المفردات شرحاً لغوياً دقيقاً واضحاً على هذا النحو الذي تناول به ابن عاشور كلمة المتقي قلما نجد مثله عند أصحاب المعاجم اللغوية، وذلك لأنهم يكتفون غالباً بشرح المادة الأصلية للكلمة عن شرح ما يشتق منها إذا كان المشتق قياسياً كاسم الفاعل واسم المفعول.

3. "التفت":

ومن أمثلة تحريره في تحقيق معاني المفردات ما نجده في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: 29]، فقد ذكر اختلاف المفسرين في المراد بكلمة "التفت"، واضطراب أئمة اللغة في معناها، ونقل في ذلك أقوالاً منها الدرن والوسخ وقص الأظفار والأخذ من الشارب وكل ما يحرم على المحرم، ثم بين رأيه الخاص، فنفي أن يكون التفت شيئاً مما ذكر، وذهب إلى أنه بعض أعمال الحج، واستند في ذلك إلى السياق اللفظي الذي وردت فيه الكلمة، وبعض الآثار المنقولة عن ابن عمر وابن عباس، وذكر على سبيل الاستئناس أن هذا المعنى للتفت هو ما جرى عليه الحري في بعض مقاماته حين قال: "فلما قضيت بعون الله التفت، واستبحت الطيب والرق، صادف موسم الخيف، مغمعان الصيف" 55.56

ونرى ابن عاشور في هذا الموضوع يبين ما يراه صواباً في معنى المفردة مؤيداً بالتفسير المنقول عن بعض الصحابة وبالسبب اللغوي، ويستأنس بما جرى به الاستعمال في كتب كبار الأدباء.

4. "العدل":

ونجده في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 48] يفسر "العدل" بأنه مصدر سمي به العوض والفداء، والواقع أنه لا تخلو كتب اللغة 57، وكتب التفسير 58 مما يفيد أنه مصدر استعمل بمعنى الفداء أو الفدية، ولكن الالفت في عمل ابن عاشور هو عنايته بتبيين وجه إطلاق العدل على الفداء، فقد أرجع ذلك إلى أن الفداء يكون معادلاً ومساوياً في القيمة للمقدي. 59 وما أكثر ما يقف ابن عاشور عند مثل هذه اللطائف.

5. "السفاهة":

ومن أمثلة اعتناؤه بذكر المعاني المتعددة للمفردة الواحدة، وبحثه عن العلاقات بين هذه المعاني ما نجده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5]، فقد ذكر أن السفهاء جمع مفردة سفيه، وهو من اتصف بالسفاهة، ثم فسّر السفاهة بأنها خفة العقل وقلة الضبط للأمور، وساق لهذا المعنى شاهداً من الشعر، ثم ذكر أنها تستعمل في كلام العرب بمعنيين؛ أحدهما ضعف الرأي، والآخر سوء تدبير المال، ووجه إطلاقهم السفاهة على سوء تدبير المال بأنه مسبب عن ضعف الرأي، وجعل كلمة "السفهاء" في الآية المقدمة من الاستعمال الثاني. 60

6. "يأس":

ومن مظاهر اهتمامه بالمعنى الذي تأخذه الكلمة في الاستعمال، ووجوه استعمالها في الكلام، وطريقة اكتسابها المعنى، ما نجده في تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعٌ﴾ [الرعد: 31] ، فقد ذكر أنّ معنى الفعل "يأس" في هذه الآية هو يوقن ويعلم، وأنه لا يستعمل في الكلام إلا متبوعاً بأن المصدرية، وأنّ أصله من اليأس الذي هو تيقن انتفاء حصول شيء بعد البحث عنه، ثم استعمل بمعنى اليقين مطلقاً على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته اللزوم، ثم صار استعماله بهذا المعنى حقيقة شائعة، واستشهد ابن عاشور لهذا الاستعمال ببيت من الشعر وذكر أنّ له شواهد أخرى. 61

ونشير هنا إلى أنّ من العلماء المتقدمين من سبق إلى القول بأنّ معنى الفعل "يأس" في الآية هو يعلم 62، ومنهم من سبق إلى أنّها تأتي في اللغة بهذا المعنى 63، ومنهم من ذكر أنّ استعمالها بهذا المعنى مجاز 64، ولكن الالفت في عمل ابن عاشور هو تسجيله لسلسلة حياة المفردة، وتبيين مراحل انتقالها من طور إلى آخر، وإيضاح السبيل التي سلكتها على وجه الدقة حتى أخذت معناها الأخير، كل ذلك بأسلوب بيّن واضح مؤيد بما يشهد له من كلام العرب.

7. "الشح":

ومن ذلك ما نراه في تفسير قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: 19]، فقد ذكر ابن عاشور في هذا الموضع أنّ أصل الشح انتفاء بذل المال، وأنه يستعمل على وجه الحقيقة بمعنى يُخل الإنسان بما في وسعه من الأشياء التي تنفع غيره، وأنه يستعمل مجازاً بمعنى منع المقدور عليه من الإعانة أو النصر، وأنه يتعدى إلى الشيء الذي يُبخل به بواسطة "الباء" أو "على"، ويتعدى إلى الشخص الذي يُمنع بواسطة "على"، ووجه هذه التعدية الأخيرة ما يتضمّنه الشح من معنى الاعتداء، ومن تعديته بـ "على" إلى المبخول به قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: 19]، ومن تعديته بها إلى الشخص الممنوع قوله في الآية نفسها ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: 19]. 65

وما يستوقف النظر هنا هو أنّ ابن عاشور لم يغادر تفسير "الشح" حتى أتى على أصل المعنى للكلمة، وبيّن ما تستعمل فيه على سبيل الحقيقة، وما تستعمل فيه على سبيل المجاز، وطريقة استعمالها في السياق اللغوي مع التمثيل من القرآن، وتوجيه طريقة الاستعمال.

8. "مِقات":

ومن تتبعه للأطوار التي تتقلب فيها الكلمة ما نراه في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَةٍ مَّعْلُومَةٍ﴾ [الواقعة: 49-50]، فقد فسّر المِقات في هذه الآية بالوقت والأجل، وجوّز أن يكون المراد به المكان، وذكر في أثناء هذا التفسير أنّ أصل "مِقات" اسم آلة مصوغ للوقت، وتوسّع فيه فاستعمل بمعنى الوقت نفسه وصارت زيادة الميم والألف فيه غير دالة على معنى، وتوسّع فيه توسّعاً آخر فاستعمل للدلالة على مكان لعمل شيء ما كمواقيت الحج للأماكن التي لا يتجاوزها الحاج إلا مُحَرِّماً، ورجّح أنّ يكون هذا

الاستعمال مبنياً على ما يتضمنه التوقيت من معنى الضبط والتحديد، واستشهد لاشتماله على هذا المعنى بقول ابن عباس: "لم يوقت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر حداً معيناً". 66
ولا يخفى أنّ عمل ابن عاشور هذا يدل على اهتمام كبير بتتبع الدلالات المتعددة للمفردة، وتأمل عميق لطرق اكتسابها هذه الدلالات.

9. "يهيج":

ومن تحقيق ابن عاشور في معاني المفردات، وعدم تسليمه بما جرى عليه المفسرون قبله ما نجده في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطْمًا﴾ [الحديد: 20]، فقد ذكر هنا أنّ المفسرين تضافت كلماتهم على أنّ "يهيج" بمعنى ييبس أو يجف، وأنهم لم يأتوا بشاهد على أنّ الجفاف من معاني الهياج، ونقل أنّ الراغب 67 جعل عبارة "هاج البقل" بمعنى اصفرّ وطاب، وأنّ الزمخشري 68 جعل العبارة مجازاً بمعنى أخذ في اليبس. 69
ولم يرتض ابن عاشور تفسير الهياج باليبس، ولا بالاصفرار، وحاصل رأيه أنّ الهياج هو الغلظ والاقتراب من اليبس، واستند في ذلك إلى أنّ مادة الكلمة دالة على الثوران والاضطراب، وأنّ الزرع في مرحلة الغلظ التي تسبق الاصفرار واليبس يصير لحركته صوت يشبه الهيجان، واستند أيضاً إلى السياق اللفظي، وجعل هذه الحالة التي يمر بها الزرع المعبر عنها بلفظ "يهيج" في هذه الآية ماثلة لحالته المعبر عنها بالاستغلاظ والاستواء في قوله تعالى: ﴿كَزَرَ حَرْجَ شَطْءٍ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ [الفتح: 29]. 70
وما يلفت الانتباه في عمل ابن عاشور هنا هو استقلاله بالنظر، وتحريه للمعنى الدقيق للكلمة، ومراعاته للسياق اللفظي، واهتمامه بإيجاد العلاقات بين المعاني ورد بعضها إلى بعض.

10. معنى الائتمار:

ومن أمثلة اعتناء ابن عاشور ببيان معاني المفردات، والكشف عن ارتباط بعضها ببعض ما نراه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 6]، فقد فسّر الائتمار بالتشاور وتداول النظر، وذكر أنّ الائتمار إنما هو في الأصل مطاوع للأمر، وأطلق على التشاور وتبادل وجهات النظر لما يقع بين المتشاورين من أنّ أحدهما يأمر والآخر يأتمر، وسمّيت المجامع التي يجتمع فيها أصحاب القصد الموحّد مؤتمرات لما يقع فيها من الائتمار الذي هو التشاور وتبادل الآراء. 71
وعلى هذا النحو يطرد في تفسير ابن عاشور بيان معاني المفردات في كلام العرب مع الحرص على الضبط والتحقيق والاستشهاد بالشواهد الشعرية والقرآنية، والاستئناس بما ورد في كتب الأدب.

خاتمة:

حاصل هذا البحث أنّ اللغة العربية تتميز بجملة من الخصائص الدلالية، ومن أهم خصائص مفرداتها أنّها تتجمع في أسر، وترجع إلى أصول، وتتولد - في الأغلب - عن طريق الاشتقاق على نحو يحفظ لها أصولها، وبمنحها القدرة على التعبير عن المعاني المستحدثة، ومنها أنّها تنتظم في صيغ وأوزان تمنحها دلالتها الخاصة، وتكسبها نغماً خاصاً، ومنها دقّتها في التعبير عن المعاني المتقاربة، وكثرة وجوه استعمالها.

وإذا كان القرآن الكريم هو المعرض الأوسع والأشمل لخصائص اللغة العربية، فلا عجب أن يكون الذين عُنوا بتفسيره تفسيراً لغوياً أحسن العارضين لخصائصها، وخير المنبّهين على مزاياها، ولعل أبرز من مثّل هذه الفئة من العلماء في عصرنا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وقد كان فيما قدّمناه محاولة لإبراز جهده في هذا المضمار بمقدار ما اتسع له مجال البحث، وعلى قدر ما بلغه جهد المُقلّ.

المصادر والمراجع :

- ابن النديم. الفهرست. بيروت - لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد. ط1. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، 1422.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. لسان العرب مع حواش لليازجي وجماعة من اللغويين. ط3. بيروت - لبنان: دار صادر، 1414.
- الحري، أبو محمد القاسم بن علي. مقامات الحريري. بيروت - لبنان: مطبعة المعارف، 1873.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي. ط1. بيروت، دمشق: دار القلم، الدار الشامية، 1412.
- الزجاج، أبو إسحق، إبراهيم بن السري بن سهل. معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلي. ط1. بيروت - لبنان: عالم الكتب، 1408.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. ط1. بيروت - لبنان: دار المعرفة، 1990.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد. أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود. ط1. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، 1998.
- الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبطه وصححه ورّثه: مصطفى حسين أحمد. ط3. دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، 1987.
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي. ط3. القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت.

العقاد، عباس محمود. أشتات مجتمعات في اللغة والأدب. مصر: دار المعارف، 1963.

اللغة الشاعرة. القاهرة - مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت.

الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين. القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. ط8. بيروت - لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005

المبارك، محمد. فقه اللغة وخصائص العربية. ط7. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1401

الهوامش:

- ¹ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط1. (بيروت - لبنان: دار المعرفة، 1990) ص 104، 105.
- ² ينظر في كتب معاني القرآن ومشكله ومجازه: ابن النديم، الفهرست (بيروت - لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت) ص 51، 52.
- ³ ينظر في كتب غريب القرآن: المرجع السابق، ص 52، 53.
- ⁴ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984) ج30، ص 636.
- ⁵ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص8.
- ⁶ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص7.
- ⁷ ينظر: المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، ط7. (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1401) ص 70.
- ⁸ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط3. (القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت) ج1، ص 346.
- ⁹ المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية ص 70، 71.
- ¹⁰ العقاد، عباس محمود، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب (مصر: دار المعارف، 1963) ص 101.
- ¹¹ المرجع السابق.
- ¹² ينظر: المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية ص 112، 113.
- ¹³ ينظر: المرجع السابق، ص 129.
- ¹⁴ ينظر: المرجع السابق، 116.
- ¹⁵ العقاد، عباس محمود، أشتات مجتمعات ص 102.
- ¹⁶ العقاد، عباس محمود، اللغة الشاعرة (القاهرة - مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت) ص 14.
- ¹⁷ المرجع السابق.
- ¹⁸ المرجع السابق.
- ¹⁹ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج1، ص 162 وما بعدها.
- ²⁰ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص 165.
- ²¹ ينظر: الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبطه وصححه ورّبه: مصطفى حسين أحمد، ط3. (دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، 1987) ج1، ص 10.
- ²² ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج1، ص 166، 167.
- ²³ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص 374.
- ²⁴ ينظر: المرجع السابق، ج3، ص 148.
- ²⁵ قال الزجاج: "وقد اختلفَ التَّحْوِيلُ في "تَوَزَاة" فَقَالَ الْكُوفِيُّونَ تَوَزَاةً يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ "تَفْعَلَةٌ" مِنْ وَرَيْثُ بِكَ زَيْدِي، فَالْأَصْلُ عِنْدَهُمْ تَوَزَاةٌ إِلَّا أَنَّ الْبَاءَ قَلِبْتَ أَلْفًا لِتَحْرِكِهَا وَانْفِتَاحَ مَا قَبْلُهَا... وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ تَفْعَلَةٌ مِثْلَ تَوْصِيَةٍ وَلَكِنْ قَلِبْتَ مِنْ تَفْعَلَةٍ إِلَى تَفْعَلَةٍ... وَقَالَ الْبَصْرِيُّونَ: أَصْلُهَا فَوَعَلَةٌ". ينظر: الزجاج، أبو إسحق، إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، ط1. (بيروت - لبنان: عالم الكتب، 1408) ج1، ص 374، 375.
- ²⁶ ينظر ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج3، ص 148، 149.
- ²⁷ ينظر: المرجع السابق، ج3، ص 149.
- ²⁸ ينظر: المرجع السابق، ج3، ص 174.

- ²⁹ ينظر: المرجع السابق، ج2، ص 312.
- ³⁰ المرجع السابق، ج2، ص 314.
- ³¹ ينظر: المرجع السابق، ج2، ص 314.
- ³² ينظر: المرجع السابق، ج3، ص 37.
- ³³ ينظر: الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف ج1، ص 491.
- ³⁴ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج3، ص 181.
- ³⁵ ينظر: المرجع السابق، ج15، ص 278.
- ³⁶ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص 193.
- ³⁷ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص 254.
- ³⁸ ينظر: المرجع السابق، ج2، ص 306.
- ³⁹ ينظر: المرجع السابق، ج2، ص 344.
- ⁴⁰ المرجع السابق، ج3، ص 18.
- ⁴¹ ينظر: المرجع السابق، ج6، ص 86.
- ⁴² المرجع السابق، ج16، ص 86.
- ⁴³ ينظر: المرجع السابق.
- ⁴⁴ ينظر: المرجع السابق، ج13، ص 39.
- ⁴⁵ ينظر: المرجع السابق، ج25، ص 30.
- ⁴⁶ ينظر: المرجع السابق.
- ⁴⁷ ينظر: المرجع السابق، ج28، ص 133.
- ⁴⁸ ينظر: المرجع السابق، ج1، ص 8.
- ⁴⁹ ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب مع حواش لليازجي وجماعة من اللغويين، ط3. (بيروت - لبنان: دار صادر، 1414) ج13، ص 457.
- ⁵⁰ الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين، القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8. (بيروت - لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005) ص 1241.
- ⁵¹ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، ط1. (بيروت، دمشق: دار القلم، الدار الشامية، 1412) ص 892.
- ⁵² ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج1، ص 240.
- ⁵³ المرجع السابق.
- ⁵⁴ المرجع السابق، ج1، ص 226.
- ⁵⁵ الحريري، أبو محمد القاسم بن علي، مقامات الحريري (بيروت - لبنان: مطبعة المعارف، 1873) ص 132.
- ⁵⁶ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج17، ص 249.
- ⁵⁷ ينظر: ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب ج11، ص 431 وما بعدها.
- ⁵⁸ ينظر على سبيل المثال: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1. (بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، 1422) ج1، ص 139.
- ⁵⁹ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج1، ص 486.
- ⁶⁰ المرجع السابق، ج1، ص 287.
- ⁶¹ ينظر: المرجع السابق، ج13، ص 145.
- ⁶² ينظر على سبيل المثال: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام، المحرر الوجيز ج3، ص 313.
- ⁶³ ينظر: ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب ج6، ص 260.

- ⁶⁴ ينظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط1. (بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، 1998) ج2، ص 386.
- ⁶⁵ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج21، ص 296.
- ⁶⁶ ينظر: المرجع السابق، ج27، ص 308.
- ⁶⁷ ينظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات ص 848.
- ⁶⁸ ينظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة ج2، ص 385.
- ⁶⁹ ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج27، ص 405.
- ⁷⁰ ينظر: المرجع السابق، ج27، ص 405، 406.
- ⁷¹ ينظر: المرجع السابق، ج28، ص 329.